

Ahmad Farid Rifā'ī

الدكتور أحمد رفيع

مدير إدارة الصحافة والنشر  
والثقافة المصرية

الدين محمد رفيع

مكتبة القراءة والثقافة الأدبية

مطبوعات دار الأمان

سلسلة زعماء الفلسفة والأدب والأخلاق

حلقة

الغزالي

Title :

في مجلدين

al-Ghazzālī

مضبوطة ومشروحة ومعلقة عليها

راجعت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب

المجلد الأول

v.1

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة عيسى الباني الحلبي وشركاه بمصر

كَلِمَةٌ فَضِيلَةٌ مَوْلَانَا الْأَسْتَاذِ الْأَكْبَرِ  
الْشَيْخِ مُحَمَّدِ مُصْطَفَى الْمَرَاغِيِّ شَيْخِ الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ

إِذَا ذُكِرَتْ أَسْمَاءُ الْعُلَمَاءِ ، اتَّجَهَ الْفِكْرُ إِلَى مَا أُمْتَازُوا  
بِهِ مِنْ فُرُوعِ الْعِلْمِ ، وَسَعَبَ الْمَعْرِفَةَ : فَإِذَا ذُكِرَ ابْنُ سَيِّدِنَا ،  
أَوْ الْفَارَابِيُّ ، خَطَرَ بِالْبَالِ فَيَلْسُوفَانِ عَظِيمَانِ مِنْ فَلَاسِفَةِ  
الْإِسْلَامِ ؛ وَإِذَا ذُكِرَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ خَطَرَ بِالْبَالِ رَجُلٌ صُوفِيٌّ ،  
لَهُ فِي التَّصَوُّفِ آرَاءٌ لَهَا خَطَرُهَا ؛ وَإِذَا ذُكِرَ الْبُخَارِيُّ ،  
وَمُسْلِمٌ ، وَأَحْمَدٌ ، خَطَرَ بِالْبَالِ رِجَالٌ لَهُمْ أَقْدَارُهُمْ فِي  
الْحِفْظِ ، وَالصِّدْقِ ، وَالْأَمَانَةِ ، وَالذِّقَّةِ ، وَمَعْرِفَةِ الرِّجَالِ .  
أَمَّا إِذَا ذُكِرَ الْغَزَالِيُّ ، فَقَدْ تَشَعَّبَتِ النَّوَاحِي ، وَلَمْ  
يَخْطُرْ بِالْبَالِ رَجُلٌ وَاحِدٌ ، بَلْ خَطَرَ بِالْبَالِ رِجَالٌ مُتَعَدِّدُونَ ،  
لِكُلِّ وَاحِدٍ قُدْرَتُهُ وَقِيَمَتُهُ .

يَخْطُرُ بِالْبَالِ الْغَزَالِيُّ ، الْأَصُولِيُّ ، الْحَاذِقُ ، الْمَاهِرُ ؛  
وَالْغَزَالِيُّ الْفَقِيهُ الْحَرُّ ؛ وَالْغَزَالِيُّ الْمُتَكَلِّمُ إِمَامُ السُّنَّةِ ،

وَحَامِي حَمَاهَا؛ وَالغَزَالِي الْأَجْتِمَاعِي، الْخَبِيرُ بِأَحْوَالِ الْعَالَمِ ،  
 وَخَفِيَّاتِ الضَّمَائِرِ ، وَمَكْنُونَاتِ الْقُلُوبِ ، وَالغَزَالِي  
 الْفَيْلسُوفُ ، أَوِ الَّذِي نَاهَضَ <sup>(١)</sup> الْفَلَسَفَةَ ، وَكَشَفَ عَمَّا فِيهَا  
 مِنْ زُخْرُفِ زَيْفٍ <sup>(٢)</sup> ، وَالغَزَالِي الْمَرْبِيُّ ، وَالغَزَالِي الصُّوفِيُّ  
 الزَّاهِدُ ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ : إِنَّهُ يَخْطُرُ بِالْبَالِ رَجُلٌ هُوَ  
 دَائِرَةٌ مَعَارِفِ عَصْرِهِ ، رَجُلٌ مُتَعَطِّشٌ إِلَى مَعْرِفَةِ كُلِّ شَيْءٍ ،  
 نَهَمٌ <sup>(٣)</sup> إِلَى جَمِيعِ فُرُوعِ الْمَعْرِفَةِ . وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِمَّا  
 قَالَهُ الْغَزَالِي عَنْ نَفْسِهِ فِي كِتَابِ الْمُنْقِذِ مِنَ الضَّلَالِ : « وَلَمْ  
 أَزَلْ فِي عُنُقُوَانِ شَبَابِي مِنْذُ رَاهَقْتُ الْبُلُوعَ ، وَقَدْ أَنْفَتِ <sup>(٤)</sup>  
 السَّنُّ الْآنَ عَلَى الْخُمْسِينَ ، أَقْتَحِمُ لُجَّةَ هَذَا الْبَحْرِ الْعَمِيقِ ،  
 وَأُخَوِّضُ غَمْرَتَهُ <sup>(٥)</sup> ، خَوْضَ الْجُسُورِ ، لَا خَوْضَ الْجَبَانِ  
 الْحَذُورِ ، وَأَتَوَعَّلُ فِي كُلِّ مُظْلِمَةٍ ، وَأَتَهَجِّمُ عَلَى كُلِّ  
 مُشْكَلَةٍ ، وَأَتَقَحَّمُ <sup>(٦)</sup> عَلَى كُلِّ وَرْطَةٍ ، وَأَتَفَحِّصُ عَقِيدَةَ كُلِّ  
 فِرْقَةٍ ، وَأَكْشِفُ أَسْرَارَ مَذْهَبِ كُلِّ طَائِفَةٍ ؛ لِأُمَيْرِ بَيْنِ

(١) ناهض الفلسفة : قاومها (٢) الزيف : رداءة النقد لما به من غش  
 (٣) نهَم : شره (٤) أنفت السن : زادت (٥) غمرته : كثيره ومعظمه  
 (٦) أتقحم : أهاجم

مِحَقٍّ وَمُبْطِلٍ ، وَمُتَسَنِّنٍ وَمُبْتَدِعٍ ، لَا أَفَادِرُ بَاطِنِيًّا إِلَّا  
 وَأُحِبُّ أَنْ أُطَّلِعَ عَلَى بَطَانَتِهِ ، وَلَا ظَاهِرِيًّا إِلَّا وَأَرِيدُ أَنْ أَعْلَمَ  
 حَاصِلَ ظَهَارَتِهِ ، وَلَا فَلَاسَفِيًّا إِلَّا وَأَقْصِدُ الْوُقُوفَ عَلَى كُنْهِ  
 فَلَاسَفَتِهِ ، وَلَا مُتَكَلِّمًا إِلَّا وَأَجْتَهِدُ فِي الْإِطْلَاعِ عَلَى غَايَةِ  
 كَلَامِهِ وَمُحَاوَلَتِهِ ، وَلَا صُوفِيًّا إِلَّا وَأَحْرِصُ عَلَى الْعَثُورِ عَلَى  
 سِرِّ صَفْوَتِهِ ، وَلَا مُتَعَبِّدًا إِلَّا وَأَتَرَصَّدُ مَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ  
 حَاصِلُ عِبَادَتِهِ ، وَلَا زِنْدِيقًا <sup>(١)</sup> إِلَّا وَأَتَجَسَّسُ وَرَاءَهُ لِتَلْتَبُّهُ إِلَى  
 أَسْبَابِ جُرْأَتِهِ فِي تَعْمِيلِهِ <sup>(٢)</sup> وَزَنْدَقَتِهِ «

وَمَعَ أَنَّ الْفَلَسَفَةَ لَيْسَتْ هِيَ الْفِرْعَ الْبَارِزَ عِنْدَ  
 الْغَزَالِيِّ مِنْ فُرُوعِ الْمَعْرِفَةِ ، فَقَدْ قِيلَ عَنْهُ مِنْ أَسَاطِينِهَا <sup>(٣)</sup>  
 الْغَرَبِيِّينَ :

« لَمْ تُنْتِجِ الْفَلَسَفَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِكْرًا مُبْتَدِعًا  
 كَالغَزَالِيِّ » وَقِيلَ عَنْهُ : « إِنَّ أَمْثَالَ الْغَزَالِيِّ مُعْضِلَةٌ فِي نَظَرِ  
 الْفَلَسَفَةِ ، فَأَشْخَاصُهُمْ حَقَائِقُ رُوحِيَّةٌ تَحْتَاجُ إِلَى تَوْضِيحٍ .»

(١) الزنديق : من يبطن الكفر ويظهر الإيمان (٢) مذهب التعميل :  
 هو الذي ينكر أصحابه صفات الباري تعالى أولًا يثبتونه (٣) الاساطين :  
 جمع اسطوانة ، وهي في اللغة العمود . والمراد هنا كبار العلماء وثقاتهم

وَيُعَدُّ الْغَزَالِيَّ بِحَقِّ ، إِمَامٍ أَهْلِ الْبَيَانِ ، فِي الْأَسْلُوبِ الْعِلْمِيِّ ، وَالْأَسْلُوبِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، وَقَدْ حَرَصَ أَشَدَّ الْحَرَصِ عَلَى إِفْهَامِ الْقَارِئِينَ وَإِقْنَاعِهِمْ بِمَا يُرِيدُ إِبْلَاغَهُمْ إِيَّاهُ ، فَجَانَبَ التَّمَقِيدَ وَالِاضْطِلَاحَاتِ الْفَنِّيَّةَ ، وَأَكْثَرَ مِنْ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ فِي تَقْرِيْبِ الْمَعَانِي الدَّقِيقَةِ ، كَمَا يُعَدُّ بِحَقِّ ، إِمَامٍ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ حَاوَلُوا تَقْرِيْبَ الْفَلْسَفَةِ ، وَمُدْرَكَاتِ الصُّوْفِيَّةِ ، إِلَى عَقَائِدِ الدِّينِ وَقَوَاعِدِهِ .

وَقَدْ نَصَبَ <sup>(١)</sup> الْأُدْكُتُورُ أَحْمَدُ فَرِيدُ الرَّفَاعِيُّ نَفْسَهُ لِبَحْثِ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ الْفَدَّةِ ، وَعَرَضَ آثَارَهَا عَلَى الْعُلَمَاءِ وَالْجُمْهُورِ .

وَالْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ فَرِيدُ الرَّفَاعِيُّ - بِمَا هِيَ لَهُ مِنْ أَسْبَابِ الدَّرْسِ ، وَمَا وَفَّقَ لَهُ مِنْ بَعَثِ مَكُونِ الشَّخْصِيَّاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ - قَدْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُبْرِزَهُ لِلنَّاسِ بِرَأْيَةٍ صَافِيَةٍ ، تَتِمَّلُ فِيهَا شَخْصِيَّةُ الْغَزَالِيِّ ، وَتُظْهِرُ فِيهَا رُوحَهُ الْقَوِيَّةَ الْوَثَابَةَ ، غَيْرَ نَاسٍ أَنْ يَزِنَ حُجْجَ خُصُومِ الْغَزَالِيِّ ، وَأَنْ

يُنَاقِشَهَا فِي رِفْقٍ وَأَنَاةٍ ، لَمْ يُوفَّقْ لَهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ عَرَضُوا <sup>(١)</sup> لِدِرَاسَةِ الشَّخْصِيَّاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْفَدَّةِ .

وَهُوَ حِينَ يَكْتُبُ سِيرَةَ الْغَزَالِيِّ ، يُفَصِّلُهَا تَفْصِيلاً مَبْنِيّاً عَلَى خَيْرِ مَا تُكْتُبُ بِهِ سِيرَةُ الرِّجَالِ ، وَيَعْرِضُهَا لِلنَّاسِ سِلْسِلَةً وَاضِحَةً ، لِيُمْكِنَ لَهُمْ مِنَ الْإِنْتِفَاعِ بِهَذَا السَّفَرِ الْخَافِلِ بِجَلَائِلِ الْأَعْمَالِ فِي شَتَى مَرَاحِلِهِ ، نَاشِئاً فِي الْعِلْمِ ، وَمُتَدَرِّجاً فِي مَدَارِجِهِ ، وَمُتَشَكِّكاً فِي مَعْلُومَاتِهِ ، وَمُتَعَطِّشاً لِدِرَاسَةِ عُلُومِ عَصْرِهِ ، وَمُتَبَاعِداً عَنِ الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ ، وَمُعْتَرِلاً فِي دَارِهِ ، وَمُتَّصِوفاً ، وَمُدْرَساً بَاحِثاً ، وَقَيْلَسُوفاً حَكِيماً ، وَمُرْشِداً كَبِيراً .

وَيَذْكَرُ كُتُبَ الْغَزَالِيِّ فَيَدْرُسُهَا دِرَاسَةَ الْمُتَفَهِّمِ لِمَرَامِهَا ، الْمَوْضِحِ لِمَقَاصِدِهَا ، وَيَجْلُو لِلنَّاسِ مَا فِيهَا مِمَّا يَهْدُبُ الْخُلُقَ ، وَيُنِيرُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَرشِدِ ، وَيَقْفُ الْعَقْلَ ، وَيُنْمِي الْمَدَارِكَ ، وَيَصْقِلُ الْإِيمَانَ ، وَيَقْوِي الْيَقِينَ . وَيَذْكَرُ مَا اسْتَدْرَكَ خُصُومَ الْغَزَالِيِّ عَلَيْهِ ، مِنْ حِوَارٍ

وَحِجَابٍ ، كَفَرُوهُ بِهِ حِينًا ، وَجَهَلُوهُ بِهِ آخَرَ ، فَيَتَمَهَّدُ  
لِتِلْكَ الشُّبْهِ <sup>(١)</sup> فَيَبْحَثُهَا وَيَكْشِفُ قَاِضَهَا ، وَلَا يُبْقِي عَلَى  
شَيْءٍ مِنْهَا .

وَمَا كَانَ الْجَدَلُ بَيْنَ الْغَزَالِيِّ وَخُصُومِهِ نِزَاعًا بَيْنَ  
أَشْخَاصٍ فَلَا يُقَامُ لَهُ وَزْنٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ نِزَاعٌ بَيْنَ فِكْرَتَيْنِ ،  
أَوْ كَمَا يُسَمَّى فِي الْعِلْمِ الْحَدِيثِ ، نِزَاعٌ بَيْنَ آرَاءِ مَدْرَسَتَيْنِ .  
فَالْغَزَالِيُّ ، مِزَاجٌ <sup>(٢)</sup> مِنْ عُلُومٍ شَتَّى ، أَنْضَجَهَا الْبَحْثُ ،  
وَصَقَلَهَا التَّفَكِيرُ ، وَأَصَفَتْهَا مَجَارِبُهُ وَشُكُوكُهُ الْقَاسِيَةُ  
الَّتِي عَانَاهَا فِي نَشَأَتِهِ ، وَالَّتِي وَصَفَهَا وَصْفًا دَقِيقًا فِي كِتَابِهِ  
« الْمُنْقِذُ مِنَ الضَّلَالِ » ، وَخُصُومُهُ لَا يَسِيرُونَ عَلَى الطَّرِيقِ  
الَّتِي يَسِيرُ فِيهَا ، وَلَا يَشْعُرُونَ بِلَذَّةِ مَا ذَاقَ الْغَزَالِيُّ مِنْ  
عُلُومٍ رُوحِيَّةٍ ، وَتَصَوُّفٍ مَزْجَةٍ بِالْفَلَسَفَةِ .

فَهَيْمَةُ الدُّكْتُورِ الرَّقَائِيِّ فِي إِبَانَةِ هَذِهِ النُّظَرِيَّاتِ ،  
وَوَزْنُهَا جَيِّدًا ، مُهَمَّةٌ لَيْسَتْ بِالسَّهْلَةِ ، وَلَا بِالْيَسِيرَةِ ؛  
لِأَنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَعْرِضَ لِآرَاءِ الْغَزَالِيِّ وَنُظَرِيَّاتِهِ فِي

(١) الشبه : جمع شبهة ، وهي الالتباس (٢) مزاج : خليط

الْفَلَسَفَةِ ، فَيُوَ كَدَّ لِلنَّاسِ أَنَّ الْغَزَالِيَّ شَأَى فَلَاسِفَةَ الْغَرْبِ  
وَسَبَقَهُمْ بِأَجْيَالٍ فِي تَقْرِيرِ بَعْضِ النُّظَرِيَّاتِ الْفَلَسَفِيَّةِ ، عَلَى  
وَجْهِ امْتِنَازٍ بِهِ هُوَ ، وَهُوَ صَبَغُهَا بِالتَّصَوُّفِ الَّذِي رَأَى فِي  
آخِرِ حَيَاتِهِ أَنَّهُ الْعِلْمُ ، وَالْعِلْمُ كُلُّهُ . وَأَنْ يُفْهَمَ الْجَاهِلِينَ  
الْمُكَابِرِينَ أَنَّ فَلَاسِفَةَ الْمُسْلِمِينَ ، وَضَعُوا مِنَ النُّظَرِيَّاتِ  
فِي التَّرْبِيَةِ ، وَتَهْدِيْبِ الطِّفْلِ مَا يُؤْفِي عَلَى الْغَايَةِ فِي هَذَا الشَّانِ ،  
وَفِي نِظَامِ الدَّوْلَةِ ، وَشُؤُونِ الْحَيَاةِ ، مَا يَكْفُلُ لِلنَّاسِ  
السَّعَادَةَ وَالنَّهَاءَةَ .

وَفِي الْكِتَابِ مَجُودٌ كَثِيرَةٌ ، تُعْتَبَرُ عَرَضًا عَامًّا  
لِحَيَاةِ الْغَزَالِيِّ الشَّخْصِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ ، وَيَتِمَثَّلُ بِهِ أَحْسَنُ  
تَمَثِيلٍ .

وَلَوْ نَدَبَ الْمُفَكِّرُونَ لِمِثْلِ مَا نَدَبَ الدُّكْتُورُ  
الرَّقَائِيُّ نَفْسَهُ لِلْقِيَامِ بِهِ ، لَكَانَ لَنَا سِلْسِلَةٌ مِنْ دِرَاسَةٍ  
عَمِيقَةٍ ، لِإِبْطَالِ الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ وَقَادَتِهِ مَا

محمد مصطفى

المرافعي

٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٥٥  
١٧ يونيو سنة ١٩٣٦